مشكلة الشعور

بقلم زكريا إبراهيم
مدرس بمدرسة السويس الثانوية

هل يحق لنا أن ننظر إلى بعض المشاكل الفلسفية على ضوء علم النفس ؟ وهل يكون فى استطاعتنا أن نتوصل إلى الحكم على بعض المذاهب الفلسفية ، حكماً علمياً صحيحاً ، بالاستناد إلى الحقائق السيكولوجية ؟ . . . هذا ما نريد أن نقف عليه فى هذا البحث الموجز الذى ينصب على دراسة مشكلة « الشعور » ، على نحو ما عرض لها الفلاسفة عند بحثهم لنظرية المعرفة .

وهنا نلاحظ أن الفلسفة — منذ عهد ديكارت — قد اعتادت أن تنظر إلى «الواقعة النفسية» على أنها تنطوى دائماً على « شعور بالذات » بمعنى ، أن «الكوجيتو»(١) متضمن بالضرورة فى كل ظاهرة نفسية . ولكن هل من الحق أن الشعور بالذات هو ظاهرة أولية تجئ دائماً مصاحبة لكل حالة نفسية ؟ وهل فى استطاعتنا أن نقول إن الإنسان يشاهد نفسه دائماً فى كل حالة شعورية تعرض له ؟

إن علم النفس ليظهرنا على أن شعور الإنسان بحالاته النفسية لا يحدث إلا فى ظروف خاصة ، ولحظات معينة . فمن الخطأ أن نتصور أن الإنسان « يستبطن » نفسه دائماً أبداً ، كأن « التأمل الباطن » هو الحالة الطبيعية للإنسان . ومعنى هذا أن الشعور بالظواهر السيكولوجية ليس مستمراً متواصلا فى الحياة الإنسانية ، بل هو نادر شاذ ، حتى عند من يميلون إلى النظر والتأمل . فلا بد إذن من أن نفرق بين مجرد وجود وقائع الشعور ، وبين الاستبطان الذى فيه نشعر بالظاهرة النفسية . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن الشعور هو مجرد معرفة مباشرة تنصب على الظواهر الخارجية ، وأما التأمل الباطن فهو يتجاوز « الشعور » الذى هو مجرد « واقعة أولية » . وعلى ذلك فإن « معرفة » أية حالة شعورية ، لا بد بالضرورة أن تكون بمثابة حالة شعورية جديدة تختلف عن الحالة الأولى . وهذه الحالة الثانية الجديدة هى التى تنطوى فى الحقيقة على شعور بذاتها "sui conscius" ، فهى وحدها

(١) Cogito ergo sum : أنا أفكر ، فأنا إذن موجود (ديكارت)

« الواقعة السيكولوجية » التى يجئ معها شعور الشخص بذاته . ولهذا فإن الإنسان حينما يعرف أنه « يبصر » فإن هذه المعرفة لا يمكن أن تكون مجرد امتداد للإبصار ، بل لا بد أن تكون بمثابة إبصار جديد .

أما الحالة الشعورية الأولية ، فهى — على وجه العموم — عبارة عن شعور بالأشياء ، والعلاقات الخارجية (أو الروابط الموضوعية) . وعند ما يصبح الشيء الخارجى ، ومعه تلك العلاقات الموضوعية ، بمثابة « معطيات » خاصة بفرد معين ، فهنالك ينشأ الشعور بالواقعة السيكولوجية . وحينئذ ينقلب الشعور ، من مجرد شعور بفكرة ، إلى شعور بفكرة خاصة يتعقلها فرد معين ، هو ذاتى « أنا » . ومعنى هذا أن إدراكنا للأشياء ، يسبق إدراكنا للصلة الموجودة بين هذه الأشياء من ناحية ، وبين الفرد الذى يدركها أو يتصورها ، من ناحية أخرى . وإذن فإن الموضوعات الأولى للفكر هى الموضوعات الطبيعية ، لا الموضوعات النفسية ؛ وكل شعور خاص بحالة نفسية أو واقعة سيكولوجية ، هو عبارة عن تعديل ، أو مراجعة ، أو تصحيح ، لشعور سابق خاص بحالة طبيعية أو واقعة فيزيقية . — وبعبارة أخرى يمكن أن نقول إن علم النفس إنما يبدأ حينما ننتقل من « طبيعة » ساذجة بسيطة إلى « طبيعة » علمية دقيقة . وعندئذ يتحول الموضوع الطبيعى الذى تصورناه بادئ ذى بدء على أنه « مدرَك » موضوعى خالص ، إلى موضوع « نفسى » يتوقف على إدراكنا الذى يصححه ويعدل منه(١) .

وإذا صح هذا ، فإن « الظاهرة » "le phénomène" لا بد أن تكون هى الأساس المشترك لكل معرفة ، سواء أكانت طبيعية أم نفسية . ولكن الظاهرة النفسية ، أو « الواقعة السيكولوجية » واقعة مركبة "construit" لأنها تنطوى على تنظيم جديد ، وبناء خاص ، فهى لاحقة بالضرورة للظاهرة الطبيعية . وإذن فإن من الخطأ أن نقول إن معرفة الوقائع النفسية « سابقة » لمعرفة الوقائع الطبيعية . وعلى ذلك فإن ما قاله ديكارت من أن معرفة « النفس » أيسر من معرفة « الجسم » إنما هو ضرب من المحال . وهذا هو ما يدعونا إلى القول بأن الانتقال يتم على العكس من ذلك ، لأن إدراكنا ينتقل من الموضوع الطبيعى ، إلى الواقعة النفسية ؛ كما تدلنا على ذلك الملاحظة العادية البسيطة .

أما ما يقوله ديكارت من أن كل واقعة نفسية تكون مصحوبة دائماً بشعور

(١) P. Guillaume : "Introduction à la Psychologie.", J. Vrin, Paris, 1942., p. 262.

الشخص بذاته ، فهذا — فى الحقيقة — ليس واضح . ولعل الأدنى إلى الصواب — كما يقول بول جيوم — أن يكون « الكوجيتو » ظاهرة متأخرة ، لا واقعة أولية . والواقع أننا إنما نصل إلى « أنا أفكر » بعد مرورنا بمرحلتين ؛ أولاهما « هو يفكر » والأخرى : « كنت أفكر »(١) .

ذلك لأن التفكير فى الموقف الذى يوجد الإنسان بإزائه ، لا يكون بادئ ذى بدء منطوياً على شعور بنفسه ؛ بل إن المرء حينما يتحدث مع غيره أو يعمل معه فى هذا الموقف ، فإنه يجد نفسه مضطراً إلى أن يصور لنفسه ما يظنه الآخرون بصدد هذا الموقف ، أو ما يفكر فيه غيره ؛ ومعنى هذا أنه يكون بإزاء الموقف كما يراه ، من ناحية ، والموقف كما يعتقد أن غيره يراه ، من ناحية أخرى . ولكن يجب أن نلاحظ أن هذه المرحلة الأولية (التى تتمثل فيها نزعة التركيز الذاتى) لا تنطوى على شعور المرء بفكره الخاص ؛ لأن الموقف كما يراه ليس بالنسبة إليه سوى الموقف كما هو فى الواقع ، فهو لا ينطوى — فى نظره — على أى طابع ذاتى ، لأنه ليس بمثابة « وجهة نظر » خاصة . بل هو الواقع نفسه . أما الموقف كما يراه غيره ، فهو — على العكس من ذلك — ليس سوى وجهة نظر خاصة ؛ أى مجرد « ظاهرة » . ومعنى هذا أن الإنسان يدرك تفكير الآخرين ، قبل أن يدرك تفكيره الخاص ، بل هو لا يصل إلى أنه يفكر . إلا بعد علمه أن غيره يفكر . وهكذا ينتقل المرء من : « هو يفكر » إلى : « أنا أفكر » وهنا يكون إدراك الخطأ — خطأ الآخرين — سابقاً لإدراك الحقيقة . ومن فهمنا لمعنى الخطأ le notion de l'erreur نستطيع أن نتوصل إلى فهم معنى الذاتية ، والنسبية ، والظاهرة ، والفكر ، والحياة النفسية (على العموم) .

ولكن إذا كان تفكيرنا فى تفكير الآخرين (وهو التفكير المتعلق بشىء أو موقف) إنما هو رد فعل أو استجابة لموقف الآخرين ؛ فإن شعورنا بتفكيرنا الخاص إنما هو رد فعل أو استجابة لموقفنا الخاص . فتفكيرى الخاص إذن إنما هو عبارة عن تصحيح لموقف سابق ، كان المرء فيه يعتقد أنه بإزاء الواقع كما هو . وبعبارة أخرى فان المرء لا يتوصل إلى حقيقة الفكر . إلا بعد أن يدرك أن ما كان يعتقد أنه الحقيقة ، ليس سوى مجرد « فكرة » لم يلبث أن تحقق من بطلانها . فالفكرة الخاطئة (حينما يعترف الإنسان بخطئها) هى الصورة الأولى للتفكير ، لأن ما كنا

(١) (المرجع السابق) Ibid., p. 265-266.

نعتقد أنه الواقع ، يستحيل فى نظرنا إلى « فكرة » ، وهكذا ننتقل من « كنت أفكر » Je pensais إلى « أنا أفكر » .

* * *

. . . من كل ما تقدم يمكننا أن نخلص إلى أن الشعور بالذات لا يمكن أن يكون واقعة أولية فى الحياة النفسية . — وإذا كان بعض الفلاسفة قد توهموا أن الشعور بالذات ماثل دائماً فى كل الظواهر السيكولوجية ، فإن من واجبنا أن نقول — على العكس من ذلك — إن هذا الشعور لا يوجد إلا على فترات متقطعة ، وفى ظروف معينة . والواقع أن الإنسان — فى كل لحظة — يغفل نفسه ، وينسى ذاته ، ثم يعود فيستجمع نفسه ، ويسترد ذاته (إن صح هذا التعبير) . وتبعاً لذلك فإن علينا أن نستبدل بعبارة ديكارت : « أنا أفكر ، فأنا إذن موجود » ، عبارة بول فاليرى : « أنا أفكر حيناً ، فأنا إذن أوجد حيناً » : — ذلك لأن الشعور بالذات لا يوجد إلا حينما يكون هناك سبب يبرر وجوده . وكثيراً ما تكون الحياة الاجتماعية فرصة ملائمة لظهوره ، لأنها تبعثنا باستمرار إلى أن نلاحظ أنفسنا ، نظراً لأننا محاطون — من كل جانب — بأفراد كثيرين يشهدون تصرفاتنا ويحكمون على أفعالنا . — فالحياة الاجتماعية هى التى تدعونا إلى أن لأننتبه فكارنا ومشاعرنا ، من حيث أن انتباه الآخرين يتركز فى تلك الأفكار والمشاعر . . . ومعنى هذا أننا ندرك أنفسنا فى مرآة هى الفكرة التى يكونها عنا الآخرون . فتفكيرنا إذن لاحق لمعرفتنا لفكر الآخرين . ا

وصفوة القول أن الشعور بالذات هو ظاهرة « متأخرة » فى الحياة النفسية ، فلا يمكن أن نسلم بما يريد ديكارت — مثلا — أن يحملنا على تصديقه حينما يزعم أن « الكوجيتو » ظاهرة أولية . ولا نرانا فى حاجة — بعد هذا وذاك — إلى أن نقول إن « مشكلة الشعور » على نحو ما يعرض لها علم النفس ، تنطوى على حل لكثير من المشاكل الفلسفية التى يلتقى بها الباحث حينما يعرض لدراسة نظرية المعرفة .

زكريا ابراهيم